اللغة العربية والتلفزيون

الباحث عبد الحفيظ اشريطية
طالب باحث، أستاذ السلك الثانوي التأهيلي
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس فاس
المغرب

الملخص:

تعيش اللغة العربية بالإعلام المغربي أزمة حقيقية، وما نعايشه اليوم على مستوى التلفزيون المغربي يترجم ذلك العمل الحثيث الذي يهدف إلى التخلي عن اللغة العربية في مجال الاتصال والتواصل مستقبلا. فإذا كان هذا التنوع الذي يشهده الحقل الإعلامي والتلفزيوني يهدف إلى الانفتاح على "العالم" فلا بد أن ندرك أن العالم أوسع من مجرد لغة أجنبية واحدة، وإذا كانت الغاية من التدريج في العمل التلفزيوني استهداف المتلقي المحلي، فلابد من الوعي بأن هذا المتلقي يحتاج إلى تكوين لغوي حقيقي يؤهله إلى الخروج من ضعفه وأميته، عوض تكريس حالته في المجتمع؛ والعمل على نسخه في أكبر عدد ممكن من الذوات، ثم إنه – ونحن نتحدث عن المتلقي المغربي– متنوع الألسنة، لا يمكن حصره ولو تظاهرنا باستيعابه عبر تنويع العرض التلفزي، وقد ندّعي جدلا أن اللغة العربية من أهم روافد التلفزيون المغربي، فإن الواقع هو لغة عربية كُتب لها أن تنتقل من مستوى الفصاحة إلى مستوى "التلهيج"، ولا نرى أي مبالغة في وصفها "لهجة" من لهجات اللغة العربية.

أما عن الأسباب الموضوعية التي تستدعي هذا التوجه الذي اعتمده التلفزيون المغربي، فيمكن إجمالها في براغماتية العرض التلفزي، أي تلك العلاقة بين العرض ونوعية المتلقي التي رهنت الإنتاج التلفزي بتلك الطموحات المحدودة للمتلقي، وهو ما أفقد التلفزيون وظيفته الإعلامية ليكتفي فقط ب "التصوير"، وأقصى ما بلغه كان تسليع الإنتاجات التلفزية، بحثا عن "الحياة" والاستمرارية، بعيدا عن دوره الاجتماعي والسياسي والتربوي المنوط به. أما عن الحقل اللغوي فلم يراعي التلفزيون المغربي تلك القيمة المضافة التي تقدمها اللغة العربية في سياق الانفتاح بالثقافة المغربية، وأقصد هنا الثقافة بمعنى "ثقافة" وليس مجرد فلكلور عابر، هو أقرب إلى التصدير منه إلى التثاقف.

فالثقافة المغربية إذن؛ رهينة بألسنتها، بتاريخها وتقاليدها وأعرافها، ونجد أنفسنا اليوم في حاجة – أكثر من أي وقت مضي– إلى وصل الماضي بالحاضر، ونحن نعلم بذلك الدور الذي يؤديه الإعلام، وبخاصة التلفزيون في انفتاح المتلقي على تراثه أولا، حتى أذا تمكن من "نفسه" آن له أن يخاطب الأخر بهويته ومنهجه، أما أن ينفتح على هذا "الآخر" بلغة ضعيفة أو لغة غيره، وبإنتاج هزيل ومنهج مقلد، فذلك باب "الموت" الحضاري.

أهداف البحث: أبغي من هذا البحث – بحول الله– الوقوف عند إشكالية توظيف اللغة العربية في التلفزيون المغربي، والأسباب التي رسمت الخريطة اللغوية وتحكمت في الحقل اللغوي التلفزيوني المغربي، ومما أرومه أيضا تقديم نماذج تطبيقية من الأعمال التلفزية التي تمثل تهميش اللغة العربية، وتستبدلها باللسان الدارج أو بلغة أجنبية، وأخص بالذكر هنا اللغة الفرنسية.

منهج البحث: في ارتباط بموضوع اللغة والإعلام، أجد من المناسب جدا اعتماد المنهج الوصفي، الذي أراه أجدى في رصد الوضع اللغوي بالتلفزيون المغربي، أما عن امتدادات هذا الوضع اجتماعيا وسياسيا وتربويا فسأستدعي المنهج الاجتماعي لتتبع ذلك.

ولتحقيق هذه الغاية، أجد من المناسب بناء البحث وفق الآتي:

مقدمة

1 سوسيولوجية اللغة والإعلام

1.1 اللغة في المجتمع

2.1 سوسيولوجية الإعلام

2 أزمة اللغة العربية في التلفزيون

1.2 من التعريب إلى الفوضى؛ الأصول السياسية والثقافية

2.2 فرص التلفزيون في اللغة العربية

خاتمة

Abstract:

The Arabic language in the Moroccan media is in a real crisis, and what we are experiencing today at the level of Moroccan television embodies that hard work that is aimed at abandoning the Arabic language in the field of communication now and in the future

If this diversity in the media and television field is aimed at opening up to the "world", we must realise that the world is more diverse than just one foreign language, and if the purpose of this gradating in television work to target the local recipient. Thus, it must be noted that this recipient needs a proper linguistic education that will enable him to emerge from his weakness and illiteracy, rather than consecrating his condition in society and create several copies. Moreover, as we are talking about the Moroccan recipient, we can't enclose him even if we pretend to accommodate him by diversifying the television shows. We may claim that Arabic is one of the most important tributaries of Moroccan television, the reality it is an Arabic language that has been destined to move from the level of eloquence to the level of "dialect", and we do not see any exaggeration in describing it as a "dialect" of The Arabic dialects.

As for the objective reasons for this trend adopted by Moroccan television, it can be summarised in the pragmatism of the television show, i.e. the relationship between the show and the quality of the recipient, that confined the television production with those limited ambitions of the recipient, which made television lose its media function to only being a portraying platform. Its greatest achievement was the commodification of the television productions in search of "life" and continuity, away from its social, political and educational role. As for the language field, Moroccan television did not take into account the added value provided by the Arabic language in the context of Openness to Moroccan culture, and I mean culture here in the sense of culture and not just transitory folklore, and it's closer to exporting than intraculturation.

Moroccan culture, therefore, is limited by its languages, history, traditions and customs. Moreover, we find ourselves today - more than ever before - in need to join the past with the present. we know that the role played by the media, especially television, in the recipient's openness to his heritage, even if he himself can master his identity, but to open up to the "other" in a weak language or the language of others, the poor production and imitated approach lead to the death of the civilisation

مقدمة:

الخطاب الإعلامي من أقوى وسائل التأثير في العصر الحديث، فهو لا يقتصر على الخطاب المادي المستهلك، بل يعتمد أيضا خطابا نفسيا قويا، يمكّنه من توجيه الجماهير نفسيا وسياسيا، وربما إيديولوجيا أيضا. ولم يعد بإمكان أي فئة من فئات المجتمع أن تستثني نفسها من الخطاب الإعلامي، فالجميع تحت طائلة التأثير، شعروا بذلك أم لم يشعروا.

إننا لا نتحدث عن مجرد صحيفة أو مذياع أو تلفاز...، وإنما نعني بالخطاب الإعلامي تلك الأجندة المملاة مسبقا، التي ترسم خط التحرير للمؤسسة الإعلامية، وذلك التوجه العام الذي تتفرع عنه الأفكار والأعمال الصحفية والإنتاجات التلفزيونية والسينمائية. ولا يمكن بأي حال للمؤسسة الإعلامية أن تحيد عن توجهها؛ فهي في الأصل قد حدّدته منذ تأسيسها؛ بل من أجله تأسست. ولا يمكنها أن تحيد عن أجندتها، لارتباطها بها ماليا وسياسيا.

في هذا المقال سأعمل على رصد الخيار اللغوي الذي اعتمده الخطاب الإعلامي المغربي، وسأخص بالحديث مستوى توظيف اللغة العربية في التلفزيون المغربي، مقارنة باللغات الأجنبية الأخرى، والحقل اللغوي واللهجي المحلي، وعلاقة كل ذلك بمقومات الهوية المغربية. ولابد أيضا من البحث في ذلك الدور الكبير للإعلام المغربي؛ – وبخاصة التلفزيون– في ترسيخ الثقافة المغربية وتقوية الحس الهوياتي لدى المتلقي، وبخاصة في صفوف النشء، باعتباره أساس المجتمع.

ولا يخفى أن الحديث عن حضور اللغة العربية في وسائل الإعلام، أو عن أي موضوع ذي صلة بالإعلام واللغة؛ يظل ناقصا ما لم نستحضر فيه امتدادات القضية، خاصة ما يتعلق بهوية المجتمع والثوابت الدينية والسياسية والتاريخية التي قامت عليها الدولة. ولتحقيق ذلك، آثرت أن يرتبط هذا المقال بمجموعة من المفاهيم من قبيل سوسيولوجية اللغة والتلفزيون، ثم قضية التعريب التي نهجها المغرب في العديد من المجالات الحيوية بعد الاستقلال. ولا يمكننا أن نغفل – في هذا السياق– الحديث عن فرص التلفزيون المغربي في اللغة العربية، حتى يتمكن من تحقيق ريادة إعلامية؛ عربيا وإفريقيا.

1. سوسيولوجية اللغة والتلفزيون

1.1. اللغة في المجتمع

حدد الفلاسفة وعلماء الاجتماع موقع اللغة من الإنسان، وبينوا تأثيرها القوي في طريقة تفكيره، ثم في بناء علاقاته وتمثلاته، وقد وصلوا بهذا الطرح إلى نقاش عميق جدا، تأسس على ثنائية "اللغة والفكر". وإذا كان بعض العلماء قدد حددوا وظيفة اللغة في التواصل والتعبير عن الحاجة، كما فعل ابن جني واعتبرها مجرد أصوات؛ فإن علماء الاجتماع، وأبرزهم ابن خلدون، قد ربطوا فعل التعبير وفعل التواصل هذا بوعي الذات وإدراكها لوظيفة اللغة التي لا تنحصر في فعل الكلام فحسب، بل تمتد لتشمل الفكر أيضا.

وعندما نقرّ بحتمية هذا التعالق، فإننا نؤكد على أن وظيفة اللغة هي تنظيم الفكر، بينما وظيفة الفكر هي إنتاج اللغة. وهذه هي الحقيقة التي يتساهل فيها الكثير من الباحثين الذين يبرّرون الفوضى اللغوية في وسائل الإعلام المحلية، ويعتبرون ذلك ضربا من ضروب الانفتاح بالذات على الثقافات الأخرى، وقد أغفلوا أن الأمر يحتاج إلى إثبات هذه الذات أولا، وتحصينها من أي موجة استلاب محتملة، عبر إخراجها من حالة الضعف التي مازالت ترزح فيها منذ أن تعرضت لصدمة الاحتلال. فإذا لم تعترف هذه الذات بنفسها، ولم تنطلق من تاريخها وهويتها، فإن كل مجهود بَذَلَتْهُ يظل ناقصا، وكل إصلاح ادعته يظل مُشوّها. وما اللغة في الإعلام إلا واحد من المعايير التي تكشف مدى انسجام هذه الذات أو تفككها.

لقد تجاوزت اللغة على يد علماء الاجتماع والانثروبولوجيا وظيفتها التواصلية إلى وظائف أكثر تشابكا وأكثر تعقيدا، وفي خضم بحثنا عن هذه الوظائف وجب الاعتراف بأن السلوك الإنساني الجماعي يتّخذ طابعا خاصا حيثما دخلته الرمزية الجماعية؛ أي الاتصال، وأن سلوكا من هذا النوع مشتملا على الرمزية، له عند الجماعة الوظائف نفسها التي للنشاط العقلي عند الفرد، فالتذكر الجماعي، والتخطيط الجماعي، والإحساس الجماعي، والإرادة الجماعية...، كل ذلك؛ يقوم على شكل ما من أشكال الاتصال الرمزي داخل الجماعة، فاللغة تنظم العقل الجماعي، وتمنحه القوة ليصير عقلا جماعيا شعوريا[1].

بهذا المعنى؛ فإن أي مساس باللغة هو مساس بثقافة الأمة وهويتها. وعلى مرّ التاريخ الحديث، اعتمدت القوى الكبرى في حملاتها التوسعية سياسة ثقافية استهدفت من خلالها لغات الأقطار التي قصدتها، ومن أبرز هذه القوى؛ يمكن أن نتحدث عن فرنسا، التي كان لها نهج صارم ضد الثقافات الأخرى، فكل تحركاتها في هذا الاتجاه لم تعتمد منطق الإخضاع بالعنف فحسب، بل اعتمدت أيضا حربًا ثقافية موازية، حاولت عبرها إحلال اللغة الفرنسية محل اللغات الأخرى؛ اللغات الأصلية للجماعات اللغوية المستعمَرة.

لقد أسهم علم الاجتماع وما تفرع عنه من علوم، وبخاصة علم اللغة الاجتماعي في تحديد قيمة اللغة، وإبرازها كقضية هامة، ونقطة قوة لابد من الاستثمار فيها، وهو الذي عُني بدراسة الظواهر اللغوية المختلفة من وجهة نظر اجتماعية. وقد عاصر هذا العلم الكثير من التطور والتفسير منذ نشأته في بداية ثلاثينات القرن العشرين، فتحول من "علم وصفي" يعتمد بشكل مطلق ما يسجله الباحث من ملاحظات إلى "علم تجريبي"[2]. ومن أبرز النتائج التي انتهي إليها علم اللغة الاجتماعي؛ أن اللغة ترتبط ارتباطا وثيقا بمحيطها، ولا يمكن فصلها عن الظواهر الاجتماعية الأخرى.

وفي هذا السياق يتساءل هيدسون عن إمكانية وجود فواصل طبيعية بين اللغة والظواهر الأخرى؛ وهو يقصد الثقافة والفكر. ورغم أن الإجابة عن هذا التساؤل تظل معقدة، إلا أنها – حسب هيدسون– إجابة تؤكد التشابهات لا الاختلافات؛ بين اللغة وتلك الظواهر. ونتيجة لذلك؛ يؤكد هيدسون أن أفضل سبيل إلى دراسة المعنى والدلالة (اللغة) هو دراسته من ناحية علاقته بالثقافة والفكر. وبقدر ما تتضح صحة هذه النتائج، فإنها تشكّل تحديا لوجهة النظر التي سادت علم اللغة في القرن العشرين، والتي ادعت أن اللغة مستقلة ومنفصلة عما سواها.[3]

ومن حقائق اللغة أيضا؛ أنها ليست من الأمور التي يصنعها فرد معين أو أفراد معينون، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع، وتنبعث عن الحياة الجمعية، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر وتبادل للأفكار. وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاما لغويا يسير عليه مجتمعه، فيتلقاه عنه بطريق التعلم والتقليد، تماما كما يتلقى عنه سائر النظم الاجتماعية الأخرى.[4]

عبر اللغة إذن؛ تتشكل هوية الفرد، وتتأسس الذات الجماعية في إطار موحد ومنسجم، في مجتمع متفرد بمقومات لغوية وتاريخية وإيديولوجية؛ قد تختلف وقد تتقاطع مع مقومات المجتمعات الأخرى، ونستحسن في هذا الشأن أن نقول بأن المجتمع يتأسس على نظام خاص به. لذلك؛ لن نبالغ إن قلنا بانتفاء صفة "مجتمع" عن الجماعة التي فقدت بعض مقوماتها التي تأسست عليها، بمعنى آخر؛ حين يتأطر الفرد في ذاته؛ ذاته فقط، عوض أن يتأطر في سياق عام ومحيط شامل لجميع الأفراد الذين يتقاسم معهم الخصوصيات نفسها. ولعل ذلك ما بدأ يتحقق في ظل "العولمة" التي سخرت الآلة الإعلامية، والتي عملت بدورها على تفكيك "الأسرة" بصفتها النواة التي يتشكل عبرها المجتمع والدولة.

2.1 سوسيولوجيا الإعلام

عندما نتحدث عن وسائل الإعلام، فبكل بساطة نحن نقصد طرقا جديدة ومناهجا متطورة في العملية التواصلية، والتي هي في غالب الأمر عملية اتصالية أكثر منها عملية تواصل، تقوم بإنتاج مادة إعلامية مفتوحة على جمهور محلي، كما يمكن أن تستهدف بها جمهورا دوليا أو عالميا. فالخطاب التقليدي الذي كان سائدا إلى عهد قريب، لم يعد ذا جدوى في ظل التطور التكنولوجي والاقتصادي والسياسي الذي يشهده العالم. لذلك كان لابد من الانتقال إلى أسلوب جديد يقوم على الصوت والصورة.

إننا نتحدث عن عالم أصبح فيه الكلام بديلا للكتابة، واستماع ما نُطق بديلا لقراءة ما كُتب، وأتيح للجماهير التي لا حصر لها أن تستمع إلى الكلمات نفسها في الوقت نفسه، وتوافرت إمكانية الحديث إلى الناس جميعا في الوقت نفسه، بدلا من الكتابة إلى قلة قليلة منهم.[5] وإذا كنا قد عرفنا قوة وسائل الإعلام في التأثير على الجماهير ماديا ونفسيا، فإن تساؤلنا حول مدى تأثيرها على هوية المجتمع؛ يظل تساؤلا مشروعا. خاصة في ظل التنوع اللغوي (غير المضبوط) الذي طبع العمل التلفزيوني العربي بشكل خاص.

لقد تجاوزت وسيلة الإعلام، وبخاصة التلفزيون؛ وظيفة التأثير اللحظي على المتلقي، كالإمتاع والإبهار والإفادة والإخبار، إلى وظيفة جديدة تقوم على توجيه هذا المتلقي، والتحكم في مشاعره وأفكاره. أما في علاقتها بما هو سياسي فإن وظيفة وسائل الإعلام تكمن في خلق الظروف الملائمة لتنفيذ القرارات السياسية، وتبرير التوجهات الاقتصادية. وبالرغم من ظهور بعض النماذج البديلة في أربعينات القرن العشرين والتي انطلقت من حقيقة مغايرة أخذت فيها بعين الاعتبار أن التأثير الإعلامي يتشكل عبر متغيرات عديدة، ورغم انتشار بعض النماذج والأطر النظرية بعد الحرب العالمية الثانية؛ التي روّجت لفكرة التأثير المحدود لوسائل الإعلام[6]، فإن واقع النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين؛ يُصدّق – بكل وضوح – القوة الناعمة التي تُشكلها وسائل الإعلام.

لقد اهتم علماء الاجتماع وعلماء النفس، مثلهم مثل الآخرين، بوجود وسائل الإعلام في المجتمع؛ فنظر علماء الاجتماع إلى وسائل التواصل على أنها ظاهرة اجتماعية يمكنها أن تؤثر في الظواهر الأخرى، كما يمكنها أن تتأثر بهذه الظواهر. أما علماء النفس، فيرجع اهتمامهم بوسائل الإعلام إلى ما قيل – وما زال يُقال – عن التأثير السيء لوسائل الإعلام، وبخاصة تأثير مشاهد الرعب والجنس في شاشات السينما والتلفزيون على الأطفال والشباب[7]. ولعل نظرتنا المقارنة لمستويات التغيّر والتبدّل التي طرأت على أجيال النصف الثاني من القرن 20، وبداية القرن 21؛ تجعلنا ندرك تلك الانسيابية التي طبعت اندماج الشباب في الثقافة الغربية، وتلك السرعة التي يتقبل بها هؤلاء الأفراد أي سلوك يتم عرضه عليهم.

يبدو إذن؛ أن الأمر متعلق بمجموعة من المفاهيم النفسية والاجتماعية، فمن جهة الفرد؛ نجد "مركب النقص" الذي يطبع الشخصية ويجعلها دائمة البحث عن "القدوة" التي تعوض بها ذلك الخصاص النفسي والاجتماعي، وهي فرصة ثمينة يستغلها الإعلام الذي يعمل على اختيار القدوة حسب القيم التي يريد ترسيخها لدى المتلقين. أما من جهة الجماعة؛ فإننا أصبحنا مرغمين على إنكار الواقع "الواقع"، وتصديق الواقع "المصور"، في انتفاء تام للحس النقدي الذي يمكّننا من النظر إلى الأمور كما هي، وليس كما أرادت وسائل الإعلام أن تُصوره.

في هذا السياق، قدم الباحث جورج جيربنر George Gerbner دراسات حول تأثير وسائل الإعلام، كانت بمثابة الأساس النظري الذي انطلقت منه نظرية الغرس الثقافي. إذ يرى "جيربنر" أن وسائل الإعلام تنقل للجمهور رسائل عديدة تؤثر في رؤيتهم وفهمهم للأحداث والقضايا والأشخاص في العالم من حولهم، ومن ثم فإن هذه الوسائل تسهم في غرس صور ذهنية منمّطة. وبناء على ذلك فإن وسائل الإعلام تقدّم للجمهور صياغة جديدة لـ "الحقائق الاجتماعية"؛ يتم تناقلها بينهم، ما يعني التسليم بها ووصفها بـ "الحقائق الصادقة"، أو بمعنى آخر؛ أن الجمهور يعتقد أن العالم الذي يراه في وسائل الإعلام – وبخاصة التلفزيون– هو صورة حقيقية وصادقة لعالمه الحقيقي[8]

إننا نتحدث عن وظيفة خطيرة لوسائل الإعلام، تتمثل فيما يمكن أن نسميه إقناعا قسريا، بعد أن سيطرت هذه الوسائل على العقل البشري ووجهته الوجهة المطلوبة، دون أن يصاحب ذلك عنف ظاهر، حيث يصل الفرد المستهدف إلى قناعة أنه يمارس إرادته في الاختيار، في حين أنه يختار ما يريده الإعلام.[9] وهذا ما يبرر حالة التماهي التي يعيشها المتلقي "عالميا" حول مختلف القضايا السياسية والاقتصادية والبيئية والصحية، فالأمر لا يتعلق بإجماع عفوي ينطلق من القيم الإنسانية المشتركة؛ وإنما هو نتيجة لصناعة الرأي وتوجيه الفكر.

ومن المدهش هنا – يقول أحمد فهمي – أن وسائل الإعلام نجحت في التموضع كمرجعية راسخة داخل المجتمع، ليس معلوماتيا فقط، بل أيضا؛ كمرجعية للقيم والتصورات والمواقف، وقد كشفت دراسات متعددة أن الأجيال الناشئة تحديدا؛ تنظر إلى "الميديا" كمصدر للقيم والأخلاق، لا يَقِلُّ في قوته المرجعية عن الأسرة أو المؤسسة التعليمية، وربما الدينية أحيانا.[10]

وما دام حديثنا في هذا البحث يتعلق بالتلفزيون، فلابد من التأكيد على أن القوة التأثيرية لهذه الوسيلة تفوق القوة التأثيرية لأية وسيلة إعلامية أخرى. فقدرته على تقديم المادة بحيوية، وبخاصية تفاعلية؛ تزيد من قوة تأثيره في أكثر من نشاط ومجال؛ على السلوك وعلى البنية النفسية والعلاقات العائلية، وبخاصة إذا كان المتلقي لا يملك الحصانة الفكرية والثقافية التي تمكنه من مواجهة التأثيرات السلبية.[11]

أخيرا؛ فكما يمكن لوسائل الإعلام بمختلف أشكالها وطرقها أن تسهم في توجيه الجمهور ورسم اختياراته السياسية (الديمقراطية)، فإنها تسعى من خلال البرامج المتنوعة بما فيها المسلسلات الترفيهية إلى تحقيق تأثير ثقافي اجتماعي قِيَمِي. وفي هذا السياق يشير (ألفين توفلر) إلى تداخل ما هو مقصود وما هو غير مقصود في العروض التلفزيونية، التي ترسم – في كثير من الأحيان – صورة مزيفة عن الواقع. فيأتي دور المشاهد الذي يخزّن ما يتسلّمه من حقائق في عمق ذاكرته، ويشكل بذلك بنك معارفه عن نفسه ومحيطه وعن العالم كله. والجدير بالذكر أن جزءا كبيرا من العروض التلفزيونية التي كانت بسيطة، لم تعد كذلك، بل أصبحت تتكامل مع أهداف تعليمية وثقافية، سواء كانت مقصودة أو غير مقصودة.[12]

2. أزمة اللغة العربية في التلفزيون

1.2. من التعريب إلى الفوضى؛ الأصول السياسية والثقافية

لقد مر المغرب بمراحل عصيبة جدا وهو يكابد في الميدان الاحتلال الفرنسي الاسباني، ويجابه في الوقت نفسه حركة ثقافية سعت إلى اجتثاث الهوية المغربية، قادتها فرنسا في المناطق التي احتلتها، وشرعت مذ ذاك في ممارسة ضغوط سياسية واقتصادية لإزاحة اللغة العربية من مختلف الميادين، وبخاصة التعليم والإدارة، ثم بعد ذلك سيأتي الدور على الإعلام. ولتحقيق ذلك قررت فرنسا تكون جيل فرنسي جديد من أبناء المغاربة، سواء بابتعاثهم إلى فرنسا أو بتأسيس مدارس فرنسية بالمغرب. لكن؛ بعد خروج فرنسا، واستمرار ذلك الحضور القوي للغة الفرنسية بمختلف ميادين الحياة العامة في مرحلة "ما بعد الاستعمار"، قاد المغاربة نهجا مضادا للفرنَسَة، فعرّبوا التعليم والإدارة والإعلام، ومكّنوا للكتاتيب القرآنية؛ دعما للغة العربية ودحرا للفرنسية.

كان هذا؛ هو السياق الذي حكم احتكار الفرنسية للحياة العامة بالمغرب، فرغم محاولة التعريب التي شهدتها القطاعات الحيوية طيلة الأربعين عاما التي تلت الاستقلال، ها نحن – اليوم – نعود إلى اللغة الفرنسية بشكل تدريجي. وإذا كانت اللغة الفرنسة قد رأت في الإدارة والتعليم غاية، فإن الإعلام بالنسبة لها كان وسيلة وغاية في الآن نفسه، خاصة عندما نتحدث عن التلفزيون، باعتباره الوسيلة الإعلامية التي أسهمت بشكل كبير جدا في التمكين للفرنسية على حساب اللغة العربية، إذ كانت البداية من التطبيع مع اللهجات العربية المغربية مقابل الاكتفاء باللغة العربية في الخطاب الرسمي فقط، وكل ذلك من أجل إفساح مجال أرحب للغة الفرنسية.

ولا يخفى على أحد "إعادة التوجيه" التي مُورست على التلفزيون المغربي مع مطلع تسعينات القرن 20م وبداية القرن 21م، فقد تم الانتقال من حصص تلفزيونية يتم تقديمها وتنشيطها باللغة العربية (مسلسلات أجنبية مدبلجة وبرامج دينية ورسوم متحركة وأفلام كرتون...) إلى مادة تلفزيونية هجينة تجمع بين الدارجة المغربية واللغة الفرنسية، وقلما نجد اللغة العربية. نأخذ على سبيل المثال الحلقة الأولى من المسلسل المغربي "لوزين"؛ وأول ملاحظة كانت حول العنوان، كلمة "L'usine" فرنسية رغم توافر مقابل لها في اللغة العربية والدارجة المغربية، أما الملاحظة الثانية فتتمثل في "لغة" المسلسل؛ إذ تمّ توظيف حوالي 38 لفظة وجملة باللغة الفرنسية[13] في حلقة واحدة مدتها أقل من 27 دقيقة، دون احتساب ما دَرَجَ على اللسان المغربي من عبارات فرنسية وما تعود المتلقي في حياته اليومية.

ومن أفظع مظاهر تصدي التلفزيون المغربي للغة العربية؛ توظيفه للدارجة المغربية في دبلجة الفقرات الخاصة بالأطفال، ومن أمثلة ذلك سلسلة الرسوم المتحركة "Célestin"[14] والتي يبدو – من خلال الجينيريك – أنها صناعة فرنسية. وفي السياق نفسه؛ يعمد التلفزيون المغربي إلى استيراد عدد كبير جدا من المسلسلات الأجنبية، التركية والمكسيكية على سبيل المثال، التي تخصص لها ميزانيات ضخمة من أجل دبلجتها إلى الدارجة ومحاولة وضعها في قالب مغربي خالص. ولا يقتصر تأثير مثل هذه الأعمال على اللغة العربية باعتبارها لغة الثقافة والحضارة التي نشأ في كنفها جميع المغاربة؛ بل يتعداها إلى التأثير على القيم الاجتماعية التي يؤمن بها هذا المتلقي.

في مقابل كل ذلك تعيش اللغة العربية عزلة شبه تامة في الإعلام المغربي، باستثناء بعض الخطابات الرسمية، والتي أصبحت هي الأخرى – في الآونة الأخيرة – أقرب إلى اللهجة منها إلى لغة عربية فصيحة تلتزم بقواعدها ونظامها الخاص بها. هذا النهج لا يمكن – نهائيا– أن نعزوه إلى العفوية أو إلى "السيرورة الطبيعية للمجتمع"، لأنه يخضع لأجندة إعلامية لها أبعاد حضارية خالصة، يتداخل فيها ما هو سياسي بما هو اقتصادي.

وللتأكيد على البعد السياسي والحضاري لاجتثاث اللغة العربية من التلفزيون المغربي، وجب ربط القضية بسياقها العام، تاريخيا وسياسيا على الأقل. لذلك؛ كان لابد في بداية هذا البحث من الإشارة إلى دور الاستعمار الفرنسي في محاربة اللغة العربية، ذلك الدور الذي لم ينته بخروج فرنسا من المغرب، بل استمر في مرحلة "ما بعد الاستعمار"، وهو إلى الآن يحارِب كل ما يسعى إلى الحدّ من هيمنة اللغة الفرنسية بالمغرب، ويدعم – في المقابل – مُزاحمة اللّهجات العربية المحلية للغة العربية، خاصة في الإعلام بمختلف طرقه ووسائله. ومن القضايا التي اتخذت طابعا سياسيا في هذا الشأن؛ عرقلة افتتاح "أكاديمية محمد السادس للغة العربية"، لما تمنحه من قوة للغة العربية، ولما تشكله من خطر على الأجندة الفرانكفونية، وخوفا من أن تكون تجربة رائدة تستلهما باقي الدول العربية ودول إفريقيا، خاصة أن المغرب لا يفتأ يستغل هذا البعد الجيوسياسي في تحقيق نجاحاته على المستوى السياسي والاقتصادي والروحي أيضا.

2.2. فرص التلفزيون في اللغة العربية

تنطلق الحملة المناهضة للغة العربية في التلفزيون المغربي من خلفية استعمارية محضة، تستهدف إيديولوجية المتلقي وثقافته. وفي ظل هذه الفوضى التي يشهدها الحقل اللغوي بالمغرب، لم يعد هناك بد للتلفزيون المغربي من رسم "خارطة لغوية" منسجمة؛ تعطي الأولوية للغات الوطنية وعلى رأسها اللغة العربية باعتبارها القاسم المشترك بين جميع المغاربة، ثم اللغة الأمازيغية؛ أبرز الرّوافد اللغوية في الثقافة المغربية. بعد ذلك نحدد – بكل جرأة ومسؤولية– الخيار اللغوي الأجنبي الذي سيمكننا من الانفتاح على الثقافات والعلوم الأجنبية، وعندما نتحدث عن الانفتاح؛ فإننا نريد أن ننفتح على العالم بمغرب اليوم وليس بمغرب "الحماية"، المغرب الذي نوع شركاءه سياسيا واقتصاديا وعسكريا أيضا، المغرب المتطلع إلى الريادة والبعيد كل البعد عن عقدة ضيق الأفق.

إن العالم دائم الحركية، وهي خاصية تقتضي الانتظام والتوازن في مختلف المجالات، سواء تعلق الأمر بالشؤون الداخلية للأمة أو بالخيارات السياسية والاقتصادية الخارجية، ويبدو أن المغرب يسير على استحياء عندما يرتبط الأمر بعلاقة المغاربة باللغة الفرنسية، ولم نلمس – لحد الآن – شجاعة أكيدة في تصريف الأزمة اللغوية بالمغرب، وليتها انطلقت من اللغة وانتهت إليها، ولكنها امتدت– بكل أسف – لتشمل التعليم والإعلام، وعندما يتعلق الأمر بهاذين المجالين فكأنه ارتبط بكل شيء. وبهذا النهج فإن الدولة تفوّت على المجتمع المغربي فرصا ثمينة في الطريق إلى تحقيق التنمية الشاملة.

إن الانفتاح على اللهجات المحلية هو في حد ذاته انكفاء على الذات، وباعتمادنا اللغة الفرنسية القناة الوحيدة لاتصالنا بكل من هو أجنبي؛ بقيت ثقافتنا وأحوالنا، بل وحتى مواردنا البشرية رهن إشارة فرنسا. فالقناة الثانية مثلا؛ كانت قد تأسست على يد مجموعة من

الأشخاص الذين يبحثون عن التواصل مع أقلية مغربية؛ لذلك تجدها تذيع ثلاثة أرباع من برامجها باللغة الفرنسية، وهو استفزاز ثقافي ضد الشعب المغربي.[15]

وفي سياق الإصلاح المنشود للإعلام المغربي؛ يدعو الدكتور المهدي المنجرة – وهو يتحدث عن إصلاح التلفزة المغربية – إلى نهج "الإصلاح من الداخل"، مؤكدا أن تطوير أو خلق تلفزة حقيقية ببلدنا لا يتحقق بمجرد تغيير مدير أو رئيس، ولكن يجب أن تكون لدينا سياسة عامة، ورؤية مدروسة، ومقاصد مع سياسة واضحة في إطار نموذج تنموي داخلي. ولن يتم هذا؛ إلا في إطار قانوني، يتكيف مع مجتمعنا، ويأخذ بعين الاعتبار حرية الخلق المغربي، كقنوات جديدة وإنتاج مغربي، يصدر عن مؤسسة وطنية في إطار قانوني.[16]ونفهم من كلام المهدي المنجرة أن التلفزة المغربية تحتاج إلى الاستقلال هي الأخرى، لأن الوضعية التي تعيشها الآن هي وضعية "رهن الإشارة" إلى درجة تُشعر المتلقي أنها ليست قناة مغربية.

إن أي تجربة تلفزية في العالم العربي والإسلامي لم تجعل مادتها باللغة العربية بقيت محدودة الانتشار، منفردة بالأقلية التي تخاطبها بلهجتها، ومعزولة عن نسبة هائلة من الجمهور العربي والإسلامي الذي يتقاسم اللغة نفسها، والتطلعات نفسها؛ خاصة، أن الساحة الإعلامية العربية تشهد موجة تلهيج غير مسبوقة. ويبدو أن هذا التشرذم الثقافي الحاصل بالعالم العربي راجع بالأساس إلى استمرار الصمت عن الفجوة اللغوية، الأمر الذي ضاعف فجواتنا المعرفية، خاصة في ظل التطور التقني والمعلوماتي الراهن الذي بات يمارس عمليات العزل والتنحية لكل الوسائط اللغوية العاجزة عن تطوير أدواتها في العمل والإنتاج[17].

خاتمة:

حظيت اللغة العربية بأهمية كبيرة منذ أن تأسس الدرس اللغوي في القرنين السادس والسابع ميلادي، فاستمر البحث اللغوي مجرّدا اللغة عن كل المؤثرات الخارجية، لذلك نجد ابن جني – مثلا– قد اكتفى بالنظر إلى اللغة على أنها مجرد أصوات يعبر بها كل قوم عن حاجاتهم. لكن، بعد تطوّر وتوسّع الأساليب العلمية الاجتماعية، اتخذت اللغة – إلى جانب درسها المجرّد– طابعا اجتماعيا، فانطلقت بفضل علم الاجتماع نحو مفاهيم جديدة من قبيل؛ الفكر والثقافة والهوية. بهذا الشكل، وفي ظل التطور التكنلوجي والإعلامي الراهن، وجدت اللغة العربية نفسها في مواجهة مباشرة مع مجموعة من التحديات السياسية والثقافية والإعلامية.

إذن؛ فوسائل الإعلام على اختلافها؛ وبخاصة التلفزيون، تشكل تحديا كبيرا أمام حفاظ اللغة العربية على مكانتها، رغم خصائصها القوية التي تنسجم مع التطور الحضاري، فبالرغم من كونها لغة حية، ولغة مواكبة، فإنها ستستمر في ملازمتها الرفوف والخطابات الرسمية، وستبقى محصورة في مادة علمية محدودة جدا، مادامت تستظل بإعلام ضعيف، وفي ظل غياب سياسة لغوية تَرْقُبُ الوضع اللغوي، وتعمل على تحقيق الانسجام الثقافي في كنف وطن واحد.

ولا يمكننا في هذه الظرفية، إلا أن نَعْبَأَ بـ "المسؤولية السياسة" الملقاة على عاتقنا، في المغرب وفي غيره من الأقطار العربية والإسلامية؛ تجاه اللغة العربية؛ تجاه الهوية الوطنية التي تقوم في جزء كبير منها على اللغة، ولابد أيضا من العمل على توجيه الأداة الإعلامية، وبخاصة التلفزيون، إلى توظيف اللغة العربية في مختلف الفقرات والمواد الإعلامية. حتى نتمكن – على الأقل– من تحصين الجبهة الداخلية، في أفق رسم سياسة لغوية نموذجية تأخذ بعين الاعتبار السياق التاريخي والبعد الحضاري للغة العربية.

الهوامش:

[1] ميشال لويس. اللغة في المجتمع، ترجمة تمام حسان ومراجعة إبراهيم أنيس. دار إحياء الكتب العربية، 1959. ص 125

2 رالف فاسولد. علم اللغة الاجتماعي للمجتمع، ترجمة إبراهيم بن صالح محمد الفلاي. النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود– الرياض. 1420هـ / 2000م. ص (المقدمة: ل)

[3] هيدسون. علم اللغة الاجتماعي، ترجمة محمود عياد ونصر حامد أبو زيد وأكرم سعد الدين. عالم الكتب – القاهرة، الطبعة الثانية 1990. ص 119

[4] علي عبد الواحد وافي. اللغة والمجتمع، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية 1370 هـ / 1951م، ص 4

[5] ميشال لويس. اللغة في المجتمع، ترجمة تمام حسان ومراجعة إبراهيم أنيس. دار إحياء الكتب العربية، 1959. ص 18

[6] محمد شومان. الإعلام؛ الهيمنة الناعمة وبدائل المواجهة، دار الجمهورية للصحافة، شتنبر 2016. ص 25

[7] انشراح الشال. مدخل إلى علم الاجتماع الإعلامي، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة سنة 1985. ص 5

8 محمد بن سعود البشر. نظريات التأثير الإعلامي، العبيكان للنشر – الرياض. الطبعة الأولى 1435 هـ / 2014م، ص 119

[9] مجموعة مؤلفين. احتلال العقل، الإعلام والحرب النفسية، جمع وترجمة وتقديم بثينة الناصري. وكالة الصحافة العربية – الجيزة؛ جمهورية مصر العربية، طبعة 2017. ص 11

[10] أحمد فهمي، هندسة الجمهور، كيف تغير وسائل الإعلام الأفكار والتصرفات. مركز البيان، الطبعة الأولى سنة 1436هـ. ص 30

[11] هاني الرضا ورامز عمار، الرأي العام والإعلام والدعاية. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. الطبعة الثانية 1434هـ/ 2013م. ص 168

[12] هاني الرضا ورامز عمار، الرأي العام والإعلام والدعاية. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. الطبعة الثانية 1434هـ/ 2013م. ص 171

[13] تم التركيز في توظيف الكلمات والجمل الفرنسية على نطقها نطقا سليما لا تشوبه شائبة من اللسان المغربي

14 سلسلة الرسوم المتحركة "Célestin" بثتها القناة "المغربية" الثانية (2M) بالدارجة المغربية

[15] المهدي المنجرة. قيمة القيم، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية مارس 2007. ص 217

[16] المهدي المنجرة. قيمة القيم، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية مارس 2007م. ص 218

17 عبد الرحمان بودرع. سياسة إعلامية جديدة في خدمة اللغة العربية، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية. المملكة العربية السعودية. السنة الأولى– العدد الثاني (رجب) 1437هـ / أبريل 2016م. ص 49